جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم العلوم التربوية والنفسية
المرحلة الثالثة

علم النفس الشخصية

الحتمية البيئية (النظريات السلوكية)

م.د سيناء حميد رشيد

2026-2025

المقدّمة

تُعدّ النظريات السلوكية من أبرز الاتجاهات النفسية التي سعت إلى تفسير السلوك الإنساني تفسيرًا علميًا قائمًا على الملاحظة والقياس، بعيدًا عن التأويلات الذاتية والافتراضات الفلسفية المجردة. وقد نشأت هذه النظريات في سياق علمي اتسم بالميل إلى التجريب والدقة، متأثرة بالمنهج الوضعي الذي كان سائدًا في العلوم الطبيعية، الأمر الذي انعكس بوضوح على طبيعة تصوراتها حول الإنسان وسلوكه.

وانطلقت السلوكية من مبدأ أساس مفاده أن السلوك الإنساني ليس فطريًا خالصًا ولا نابعًا من عمليات عقلية داخلية غير قابلة للملاحظة، بل هو نتاج مباشر لتفاعل الفرد مع بيئته الخارجية. ومن هنا برز مفهوم الحتمية البيئية بوصفه حجر الزاوية في البناء النظري للسلوكية، حيث أُعيد النظر في دور الوراثة، وأُعطي للبيئة الدور الحاسم في تشكيل أنماط السلوك المختلفة.

وتؤكد الحتمية البيئية أن ما يصدر عن الإنسان من أفعال واستجابات يمكن تفسيره والتنبؤ به والتحكم فيه إذا ما أمكن ضبط المثيرات البيئية التي تحيط به. وقد أدى هذا التصور إلى اهتمام بالغ بدراسة قوانين التعلم، وميكانيزمات الاكتساب السلوكي، مثل الارتباط الشرطي، والتعزيز، والعقاب، والمحاولة والخطأ، والتقليد.

وقد أسهم عدد من العلماء إسهامًا جوهريًا في بلورة هذا الاتجاه، وفي مقدمتهم جون واطسن الذي دعا إلى تأسيس علم نفس موضوعي، وإيفان بافلوف الذي وضع الأسس التجريبية للاشتراط الكلاسيكي، وإدوارد ثورندايك الذي صاغ قوانين التعلم الأولى، وإدوين جاثري الذي ركز على دور الموقف الواحد في التعلم، فضلًا عن ميللر ودولارد اللذين سعيا إلى توسيع الإطار السلوكي ليشمل مفاهيم الدافعية والتقليد.

أولًا: الحتمية البيئية في النظرية السلوكية

ترى النظرية السلوكية أن الفرد يولد صفحة بيضاء، وأن البيئة بما تتضمنه من مثيرات وخبرات هي التي تشكّل أنماط السلوك المختلفة. ويؤكد السلوكيون أن التعلم يتم من خلال الارتباط بين المثير والاستجابة، وأن التعزيز والعقاب يلعبان دورًا أساسيًا في تثبيت السلوك أو إضعافه، مما يجعل السلوك خاضعًا بصورة شبه كاملة لشروط البيئة المحيطة.

ثانيًا: جون واطسن والحتمية البيئية

يُعدّ جون واطسن المؤسس الحقيقي للمدرسة السلوكية، حيث دعا إلى جعل علم النفس علمًا تجريبيًا يقتصر على دراسة السلوك الظاهر. وقد أكّد واطسن أن البيئة قادرة على تشكيل السلوك الإنساني تشكيلًا كاملًا، وذهب إلى أن التحكم في الظروف البيئية كفيل بإنتاج أي نمط سلوكي مرغوب فيه، متجاهلًا إلى حدّ كبير دور الوراثة والاستعدادات الفطرية.

كما بيّن واطسن أن الانفعالات الإنسانية، مثل الخوف والحب، يمكن تفسيرها على أساس التعلم الشرطي، كما ظهر في تجربته الشهيرة على الطفل «ألبرت الصغير»، حيث تم إحداث استجابة الخوف نتيجة لاقتران مثير محايد بمثير مزعج، وهو ما يعكس خضوع السلوك الانفعالي ذاته للتشكيل البيئي

ثالثًا: إيفان بافلوف والإشراط الكلاسيكي

قدّم إيفان بافلوف نظرية الإشراط الكلاسيكي من خلال تجاربه المعملية على الكلاب، حيث توصّل إلى أن السلوك يمكن أن يُكتسب نتيجة اقتران مثير محايد بمثير طبيعي، مما يؤدي إلى ظهور استجابة شرطية. وقد أسهمت هذه النتائج في ترسيخ الفكرة السلوكية القائلة بأن التعلم يتم بفعل العوامل البيئية دون تدخل العمليات العقلية العليا[1]

ويُعدّ الإشراط الكلاسيكي نموذجًا واضحًا للحتمية البيئية، إذ يوضّح كيف يمكن للمثيرات الخارجية وحدها أن تُحدث تغييرات ثابتة في السلوك الإنساني والحيواني على حدّ سواء.

رابعًا: إدوارد ثورندايك وقانون الأثر

يُعدّ إدوارد ثورندايك من روّاد التعلم بالمحاولة والخطأ، وقد توصّل إلى قانون الأثر الذي ينصّ على أن الاستجابات التي يعقبها رضا أو إشباع تميل إلى التكرار، في حين تضعف الاستجابات التي تعقبها نتائج غير مرضية. وقد استند في ذلك إلى تجاربه الشهيرة باستخدام صناديق الألغاز

يؤكد قانون الأثر أن نتائج السلوك البيئية هي العامل الحاسم في تثبيت الاستجابات أو إضعافها، مما يعزّز الطابع الحتمي البيئي للتعلم

خامسًا: إدوارد جاثري ونظرية الاقتران

ركّز إدوارد جاثري على مبدأ الاقتران المباشر بين المثير والاستجابة، وذهب إلى أن التعلم يمكن أن يحدث من محاولة واحدة فقط إذا ارتبطت الاستجابة بمثير معين. كما رفض جاثري فكرة التعزيز بوصفه شرطًا ضروريًا للتعلم، معتبرًا أن تكرار الموقف هو العامل الأساسي في تثبيت السلوك..

وتؤكد نظرية جاثري أن البيئة تفرض أنماط السلوك من خلال المواقف المتكررة، مما يجعل السلوك استجابة حتمية للظروف البيئية .

سادسًا: ميللر ودولارد ونظرية التعلم الاجتماعي

قدّم ميللر ودولارد نموذجًا سلوكيًا متطورًا يربط بين التعلم والدوافع، حيث افترضا أن السلوك يتشكل من خلال تفاعل أربعة عناصر رئيسة هي: الدافع، والمثير، والاستجابة، والتعزيز. وقد أسهما في توسيع المفهوم السلوكي ليشمل التعلم الاجتماعي والتقليد..

كما طرحا فرضية الإحباط والعدوان التي ترى أن الإحباط الناتج عن العوائق البيئية يؤدي إلى سلوك عدواني، وهو ما يؤكد الدور المركزي للبيئة في توجيه السلوك الإنساني.

الملخص

أن **الحتميــة البيئيــة** تمثـل الإطـار الفكـري الجـامع لمعظـم النظريـات السـلوكية، إذ تنطلـق جميعهـا مـن افتـراض رئـيس مفـاده أن السـلوك الإنسـاني مكتسـب، وقابـل للتشـكيل والتعـديل تبعًـا للظـروف البيئيـة المحيطـة بـالفرد. وقـد أسـهم هـذا التصـور فـي إرسـاء قواعـد علميـة لدراسـة السـلوك بعيـدًا عـن التـأملات الذاتيـة، معتمـدًا علـى الملاحظـة الدقيقـة والتجريـب المنظم.

وقـد تبـيّن مـن خـلال اسـتعراض إسـهامات رواد السـلوكية أن اخـتلافهم لـم يكـن حـول مركزيـة البيئـة، وإنمـا حـول آليـات الـتعلم وطرائـق حدوثـه؛ فاواطسـن شـدّد علـى دور المثيـر والاسـتجابة، وبـافلوف ركّـز علـى الارتبـاط الشـرطي، وثورنـدايك أبـرز أهميـة التعزيـز وقـانون الأثـر، فـي حـين رأى جـاثري أن الـتعلم قـد يحـدث فـي موقـف واحـد، وسعى ميللر ودولارد إلى توسيع الإطار السلوكي ليشمل مفاهيم الدافعية والتقليد.